العمارة الإسلاميّة

والوحدة الثقافية فى بناء المدن والمساجد

دكتور عبد الباقى على قصة

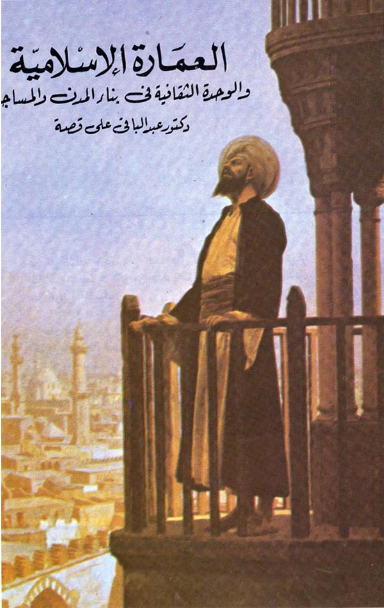

كان ثانى بناء للمدن فى الاسلام هو بناء الكوفة، وكان هذا البناء ساذجا بسيطا من القصب، فلما أحترق سألوا عمر بن الخطاب أن يأذن لهم فى البناء بالأحجار فأذن لهم قائلا «افعلوا، ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا فى البنيان، والزموا السنة تلزمكم الدولة».(١)

وقد بنى هذه المدينة سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه على الفرات بأمر الخليفة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه سنة ١٦هـ بعد بضعة أشهر من بناء البصرة، وتقع بين البصرة والحيرة، وقد أصبحت مركزا ثقافيا وعلميا نافس الكوفة ونما فيها العمران نموه فى البصرة، وصار لكل منهما مدارس فى النحو واللغة والأدب، فكان مذهب الكوفيين فى النحو يقابل مذهب البصريين.

أما البصرة فقد بناها عتبة بن غزوان، وكانت يوم بناها تمتد من البصرة على الضفة الغربية للفرات الى مكة رمالا وجبالا وسهولا، لايفصل بينها نهر.. فأنظر كيف صار أمرها فيما رواه أبن حوقل والاصطخري «ذكر بعض أهل الأخبار أن أنهار البصرة عدت أيام بلال بن أبى بردة سنة ١١٦هـ فزادت على مائة ألف نهر وعشرين ألف» قال أبن حوقل: «وقد كنت أنكر ماذكر من عدد هذه الأنهار فى أيام بلال حتى رأيت كثيرا من تلك البقاع فربما رأيت فى مقدار رمية سهم عدداً من الأنهار صغاراً تجرى فى كلها زواق صغار، ولكل نهر اسم ينسب به الى صاحبه الذى احتفره أو الى الناحية التى يصب فيها، فجوزت أن يكون ذلك فى طول هذه المسافة وعرضها».(٢)

وإذا استعملنا منهج ابن خلدون وشككنا فى الرقم الذى ورد فى رواية ابن حوقل والاصطخري وهو ١٢٠ ألف نهر فى مساحة ١٥٠×٧٥ = ١١٢٥٠ ميلا مربعا فيكون بالميل الواحد عشرة أنهر، فقد كفانا الاصطخري مؤونة ذلك.

أما الفسطاط، فكانت أول مدن المسلمين فى مصر بناها عمرو بن العاص سنة ١٨هـ وتقع على النيل فى مواجهة الجيزة، وقد أخذت الفساط تتسع وتزداد عمارة برسوخ أقدام المسلمين فى هذه الديار، وقد فاقت البصرة والكوفة فى كثير من الشئون «وبلغ طولها على ضفة النيل ثلاثة أميال»(٣).

أما عمارتها فقد أنتظمت ٢٦٠٠٠ مسجد، ثمانية آلاف شارع مسلوك، ١١٧٠ حماما، وإذا هذه الأرقام فيها شيء من المبالغة، فربما رجع ذلك الى اتصال عمرانها فيما بعد بعدة مدن منها القطائع التى بناها إلى جوارها ابن طولون والقاهرة التى بناها الفاطميون حيث اتصل هذا العمران بعضه ببعض، والتحم بالجيزة التى بناها العرب فاتصل بنيان العرب

جامع سيدي عقبة القيروان بتونس

بآثار قدماء المصريين فى هضبة الجيزة الى هليوبولس (عين شمس). وقد تناول وصفها الشعراء فقال الشريف العقيلى:

أحن إلى الفسطاط شوقا وإننى   لأدعو لها ألا يحل بها القطر
وهل فى الحيا من حاجة لجنابها   وفى كل قطر من جوانبها نهر
تبدت عروسا والمقطم تاجها   ومن نيلها عقدكما انتظم الدر(١)

وقد ظهر أثر التطور فى مدينة الفسطاط فى ظاهرة التطاول فى البنيان وتعدد طبقات وأدوار المنازل حتى بلغ خمسا الى سبع، يقول المقريزى «وربما سكن فى البيت الواحد ٢٠٠ من الناس، وبلغت نفقة البناء على بعضها ٧٠٠ ألف دينار وهى دار الحريم لخمارويه»(٥)

وقد ضرب المثل بدار بنيت على النيل لأحد وجهاء المسلمين، فكان يصب فيها كل يوم أربعمائة راوية، وقد كان الأهالى يستعملون لنقل مياه الشرب من النيل الى المنازل روافع عرفت بالأسطال تتصل بطاقات تطل على النيل وقد أحصاها بعض المؤرخين الذين زاروا هذه المدينة (فى القرن الثالث للهجرة) زمن خمارويه فقال: «طلبت بها صانعا فلم أجد فيها صانعا متفرغا لخدمتى، وقيل لى : إن كل صانع معه اثنان وثلاثة، فسألت: كم فيها من صانع؟ فأخبرت أن بها سبعين ألف صانع»(٦) ومما يدل على صدق هذه الرواية ماحكى عن قطر الندى ابنة خمارويه حيث رووا أن جهازها كان فى جملته ألف تكة ثمن كل واحدة عشرة دنانير، هذا بالاضافة الى ماأثر عن تألق أهلها فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم وفرشهم، فقد اقتنى أحدهم ألف الى عشرة آلاف فرشة.

ومع الأمويين كان تأسيس القيروان، ويعود الفضل فى بنائها الى عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ يقول ابن عبد الحكم «.. ثم انصرف عقبة الى القيروان، فلم يعجب بالقيروان الذى كان معاوية بن جديج أنشأه من قبله، فركب والناس معه حتى أتى الى موضع القيروان اليوم»(٧).

وقد خطط عقبة لأصحابه المجاهدين أماكن منازلهم فشرع فى بناء المسجد الجامع الذى وصفه البكرى فقال: «.. أول من وضع محرابه وبناه عقبة بن نافع، ثم هدمه حسان، حاشى المحراب، وبناه، وحمل إليه الساريتين الحمراوين الموشاتين بصفرة اللتين لم ير الراؤون مثلها من كنيسة كانت للأول فى الموضع المعروف اليوم بالقيسارية بسوق الضرب، ويقولون إن صاحب القسنطينية بذل لهم فيهما قبل نقلهما إلى الجامع زنتهما ذهبا فابتدروا الجامع بهما، ويذكر كل من رآها أنه لم ير فى البلاد مايقترن بهما، فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك كتب إليه عامله على القيروان يعلمه أن الجامع يضيق بأهله»(٨) وأن بجوفه بستان كبير لقوم من بنى فهر» فكتب إليه هشام يأمر بشرائها وأن يدخلها فى المسجد ففعل».(٩)

أما المدينة فقد تدرجت «فى التوسع وامتدت أطرافها، وقد اعتنى كبار الولاة الأمويين بالزيادة فى معالمها، وفى طليعتهم حسان بن النعمان، فإنه جدد بناء الجامع بما هو أحسن وأجمل مما كان عليه بادىء بدء، ونصب إلى جانب دار الإمارة مصالح الدواوين يعنى ديوان الجند، وديوان الخراج وديوان الرسائل، وما إلى ذلك من المنشآت الضرورية لتسيير دولاب الحكومة وبذلك أخذت القيروان صبغة رسمية».(١٠)

ثم جاء موسى بن نصير «فزاد فى منشآتها الحسان وأوسع نطاقها حتى صارت فى أقرب زمان دار العروبة فى المغرب، ومن محدثاته «دار الضرب» لسك النقود.. وأما السكان فإنهم تسابقوا إلى إنشاء دورهم على شكل منازل الفسطاط بمصر من حيث الوضع والطراز، وبنى الموسرون إلى جانبها المساجد الصغيرة والكتاتيب، حتى إذا تكاثرت البناءات، وتلاصقت وكونت حيا سموه باسم العشيرة التى تقطنه كرحبة القرشيين ورحبة الأنصار وحارة يحصب وحارة بنى نافذ، وربما استعاروا للحىِّ اسم أحد الأعيان من العرب النازحين كدرب المغيرة، ودرب أزهر ودرب أم أيوب وهلم جرا بحيث لم يمر نصف قرن على تأسيس القيروان حتى أصبحت أم القرى المغربية تنبعث منها أشعة الأيمان والعرفان وصارت العاصمة الإفريقية التى تنتهى إليها المسالك، وتتفرق منها الطرقات إلى المشرق والمغرب».(١١)

وإذا كان الماء هو سر الحياة، فقد روى البكرى «أن هشام بن عبد الملك أمر عامله على القيروان (عبيد الله بن الحجاب) بإنشاء خمسة عشر ماجلا (صهريجا) خارج سور المدينة تكون سقايات لأهلها، فباشرها وأتمها فى مدة سريعة، ومازال البعض منها معروف المكان، خصوصا فى المحل المسمى اليوم بفسقية الباى، وهى غير بعيدة عن فسقية الأغالبة من شرقيها»(١٢) وكانت هذه المصانع من المتممات الضرورية لتكامل عمران المدينة «ومن يتأمل هندسة هذه القنوات يحكم بأن وضعها كان فى غاية الاتقان من الناحية المعمارية الفنية».(١٣)

الأسواق والوحدة الثقافية الاسلامية :

نشأت الأسواق فى المدن الاسلامية مع قيام نظام الحسبة، ذلك أن هذا النظام تناول فيما تناول الجانب الاجتماعى فيما اتصل بالبيع والشراء وما اتصل بهما فى نطاق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، من الغش والاحتكار وتسعير السلع، مما ترتب عليه تنظيم الأسواق، وقد ورد أن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده قد ولوا على السوق عاملا، فولى الرسول ﷺ سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية على سوق مكة، وولى عمر بن الخطاب السائب بن يزيد مع عبد الله بن عتبة بن مسعود على سوق المدينة.(١٤)

ومما حكاه ابن العذارى قال : «قدم يزيد بن حاتم إفريقية (١٥٦هـ/٧٧٣م) وأصلحها، ورتب أسواق القيروان، وجعل لكل صناعة مكانا» يقصد سوقا معينة، وكان ذلك الترتيب يجرى على قاعدة إسلامية صارت متعارفا عليها فى بناء المدن بين المشرق والمغرب، كما جرى عليه الحال فى مكة والمدينة والبصرة والكوفة والفسطاط، وقد اعتبر يزيد فى ترتيب هذه الأسواق مايوجد من العلاقة بين كل طائفة من أصحاب كل تجارة متصلا يقابله صف مثله، وعين لكل سوق عريفا اختاره من بين وجوه تلك الصناعة ووظيفة العريف ويسمى أمينا أيضا– أن يشرف على سيرها، ويقاوم مايطرقها من الغش، ويسهر على حسن العلاقات بين أصحاب المهنة، وعمالهم وأعوانهم، ويحرص على ضمان حقوق الأجير كبيراً أو صغيراً».

وقد انتقل هذا النظام فى تنسيق الأسواق فى المغرب ومدنه مثل تونس وصفاقس وسوسة وغيرها من تاهرت وسجلماسة وفاس وقرطبة وطليطلة وأشبيلية، وبلرم فى صقلية فى وحدة ثقافية متجانسة كان من نتيجتها «أن أصبحت تسمية الأسواق واحدة أو متقاربة فى سائر بلاد المغرب (بل سائر بلاد الاسلام) مثل سوق العطارين، وسوق الوراقين والسرَّاجين، والبزازين وهلم جرا».(١٥)

ويمضى حسن حسنى عبد الوهاب فيقول موضحا أثر هذه الوحدة الثقافية فيقول «ولا أدل على ذلك من تسمية سوق البركة (بكسر الباء) وقد شغل فكرى وجه هذا التشابه مدة من الزمان حتى وقفت على خبر أورده ابن عبد الحكم فى تاريخه عند ذكره لتخطيط عمرو بن العاص لمدينة الفسطاط التى أنشأها بعد فتح مصر سنة ٢٠هـ قال ابن عبد الحكم: كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب «إنا قد اختططنا لك داراً بالفسطاط عند المسجد الجامع» فكتب إليه عمر رضى الله عنه «أنى لرجل بالحجاز تكون له دار بمصر» وأمره أن يجعلها سوقا للمسلمين، قال ابن لهيعة هى دار البَركة فجعلها سوقا كان يباع فيها الرقيق»(١٦) وقد عرفت ببركة الحبش أى الرقيق.

يقول حسن حسنى عبد الوهاب «ويظهر لى أن الجنود الوافدين من مصر على إفريقية فى خلال القرن الثانى نقلوا هذه التسمية بعينها الى القيروان فأطلقوها على السوق التى يباع فيها الرقيق، فقالوا (سوق البركة) كما عرفوها فى الفسطاط، ولم تقف هذه التسمية عند القيروان فحسب بل إنها امتدت إلى مدينة تونس وسوق بركتها لعرض العبيد وبيعهم من أقدم مايوجد بها، ثم إنها تحولت إلى فاس بعد ذلك، فعرف سوق رقيقها بالبركة، ومن هناك اجتازت البحر وانتقلت إلى قرطبة فنعت محل بيع العبيد السودان والعلوج بهذا الاسم أيضا». (١٧)

الفسيفساء فى المعمار الاسلامى بالمغرب والأندلس :

ترجع الفسيفساء فى أصلها التاريخى إلى الاسكندرية فى عهد اليونان، فهى من مبتكراتهم، وعنهم أخذها الرومان ونقلوها إلى أوربا وإفريقية.. وهى المعروفة بالموزيكا **Mosaica** و«هى قطع صغيرة مكعبة الشكل تتخذ من المرمر والرخام والحجارة، وأحيانا من الزجاج الملون، وترسم على مادة رخوة كالجبس المبلول مثلا، فتركب منها يد صانع خبير صوراً محكمة» (١٨) من النبات والأزهار، والأشكال الهندسية، وتلصق بها الجدران والفسقيات.

والفسقيات فى المغرب والأندلس فى المساجد هى مكان الوضوء، ومازالت حتى الآن بنفس الطريقة التى بنيت عليها. وللمغاربة والأندلسيين منهم ولع خاص بهذا الفن المعمارى فى مساجدهم وقصورهم، «وفى مدينة رقادة شاء مؤسسها إبراهيم الثانى أن يزركش بعض حافات صهريج قصره الكبير بألواح جميلة من الفسيفساء على الطريقة الموروثة صناعتها من تاريخ تقادم عصره» (١٩) لاحظ فى المزيكا الفسيفساء شكل ٢٠ ومن ذلك أيضا أن الفاطميين «اتخذوا الفسيفساء فى فرش غرفهم من منازلهم بالمهدية، وقد عثر أخيرا فى أنقاض قصر القائم بن عبيد الله المهدى على ردهة كبيرة مزخرفة بعشرات الأمتار من الفسيفساء العربية التى تمثل دوحات كثيفة تتفرع إلى أغصان باسقة بأبدع صنع وأجمل لون» (٢١) ومازال فى المغرب الاسلامى مدن جمعت بين المغاربة والأندلسيين.

يقول موريس لومبار فى كتابه «الاسلام فى مجده الأول»: ومدينة فاس مثال بارز لادخال حضارة تعتمد على المدن من النوع الشرقى إلى مجتمع بربرى يقوم على نمط الحياة السائد فى الأرياف، وهذه المدينة التى تمتاز بأسوارها وأحيائها وصناعتها وبوجود طبقة حضارية فيها، الفاس تضم سكانا ينتمون إلى أصلين مختلفين: المهاجرين الذين أبعدوا من قرطبة عقب ثورة قام بها سكان أحد أحيائها والمهاجرين القيروانيين الذين كانوا وقتا ما يشكلون حرس أمراء إفريقية ثم تخلص منهم هؤلاء فيما بعد».

«وهكذا انقسمت المدينة التى قامت على وادى فاس إلى شقين عدوة الأندلس وعدوة

القرويين لكل منهما مسجد كبير وأسواق بل ودار لصك النقود».

«وسحر مدينة فاس يعود خصوصا إلى توفر الماء بغزارة فيها، فإن القنوات العديدة المشتقة من الوادى تتوغل مياهها الى كل منزل من منازل المدينة ذات الصحون الواسعة والمزينة بالنبات والرياحين». (٢٢)

وهذه المدينة شوارعها مبلطة، تغسل شوارعها كل يوم وفى ذلك يقول ابن حوقل الذى زار المغرب فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) «تطلق مياه نهر فاس على أسواقها لتغسل الأرض وتنعش الجو وكذلك تجرى المياه فى عشر حمامات عمومية وتسير ثلاثمائة طاحونة». (٢٢)

فن المعمار فى المغرب والأندلس :

أطلق الأوربيون على فن المعمار المغربى والأندلسى **Moorshe Art** لأنه يمثل وحدة فنية فى نطاق فن المعمار الإسلامى الذى أطلقوا عليه **Mohammadan Art** أو **Moslim Art** ذلك «أن الفن الإسلامى كان موحداً فى الشكل والأسلوب والمضمون إلا أن ثمة فروقا متميزة بحسب الأقاليم والعصور وبحسب التقاليد التاريخية لكل أمة من الأمم التى دخلت الإسلام». (٢٣)

وإذا كانت الثقافة الفنية فى بناء المدن وصلت إلى المغرب قبل الأندلس إلا أن البربر المسلمين اشتركوا مع العرب المسلمين فى فتح الأندلس، وعاشوا معا فى المغرب كما عاشوا معا فى الأندلس، فلما أذن الله بأفول شمس الأندلس ارتد هؤلاء الأندلسيون إلى المغرب، وأثروا الحياة الفنية، والحضارية الثقافية فيها.

أما الأندلسيون فقد كان طرازهم أمويا شاميا، وقد بقى هذا الفن الأندلسى محافظا على طابعه ولم يتأثر بالطراز المصرى أو البغدادى مثلا، فلما توحدت المغرب مع الأندلس فى ظل المرابطين والموحدين جمعتهم الظروف التاريخية فصاروا وحدة فنية واحدة فنشأ الطراز الأندلسى المغربى وهو متأثر دون شك بالطراز البربرى والقوطى وعرف فنهم عند الأوربيين بفن المدجنين وهو الفن المغربى الأندلسى **Hespano Mouresque**.

عناصر العمارة الإسلامية فى المغرب والأندلس :

العناصر الفنية المعمارية الإسلامية عامة تشمل الأقواس والأروقة والنوافذ والأبواب والمقرنصات والعقود والقباب وغيرها ويظهر الاختلاف بين المشرق والمغرب فيما يأتى :

عرف المغاربة الأقواس نصف دائرية أو منكسرة والدائرى بعضه متطاول من أعلى أو يشبه نعل الفرس (شكل واحد) وقد شاعت فى الأندلس الأقواس المقرنصة والمقصصة، والمقرنصات **(Stalactites)** «وهى مأخوذة من النوازل والصواعد ومؤلفة من سبعة عناصر مركبة بشكل مثلثى توجد على تاج الأعمدة أو على النطف أو الأفاريز، وتكون من الجص أو من الحجر المنحوت أو محفورة على الخشب أو من الطين المحروق»(٢٤) لاحظ شكل رقم ٢.

والمآذن المغربية والأندلسية مربعة (شكل رقم ٣) والسبب فى تربيعها أنها بدأت فى عصر الأمويين فى الشام فأول مئذنة فى الاسلام هى مئذنة جامع عمر فى بصرى، وقد «اتخذ الأمويون للآذان أبراج المعبد القديم الذى قام الجامع الأموى فى نفس مكانه، وكان طراز المآذن المتبع هو أصل المآذن التى ابتدىء فى بنائها منذ ذلك الحين والتى انتشرت وأصبحت الشكل النهائى للمآذن»(٢٥) ومن هذا اللون مأذنة جامع القيروان فى تونس ومنارة الكتيبة فى مراكش التى تشبه منارة المسجد الجامع فى إشبيلية.

يقول الدكتور عفيف بهنسى «من أهم المنشآت العربية فى الأندلس جامع قرطبة الذى ابتدأ ببنائه عبد الرحمن الداخل عام ١٧٠هـ (٧٨٥م) وقد أجريت عليه عدة إضافات فيما

منظر جوي لمدينة قرطبة

بعد ويضم الصحن والحرم ذا الأعمدة والأقواس المركبة، ثم أقيمت قبة فوق المسجد فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وقد أوحى هذا المسجد إلى المرابطين والموحدين ببناء المسجد الكبير فى الجزائر عام ٤٨٩هـ (١٠٩٦م) والمسجد الكبير فى تلمسان عام ٥٣١هـ (١١٣٦م) (انظر شكل رقم ٣) ومسجد الكتبية فى مراكش»(٢٦) وقد كانت هذه المساجد فى مآذنها متوافقة تماما مع الطراز الأموى ومماثلة لمأذنة (الجيرالدا) فى إشبيلية وهى مربعة الشكل.

ومن أهم آثار الأندلس مدينة الزهراء، ومن أشهر المدن الأندلسية التى بناها المسلمون ملحقة بقرطبة، وقد أقام فيها عبد الرحمن الثالث قصره الذى امتلأ بالنقوش المجردة المستوحاة من العناصر البنائية والهندسية ذات الأصل الاسلامى التى انتقلت من المشرق وانتشرت فى إفريقية، ويلاحظ أن منارات القلاع كانت تماثل المآذن فى شكلها وهندامها، حتى التبس الأمر على الشيخ عبد الرحمن الجيلالى فى حديثه عن منارة قلعة المنصورة بتلمسان فحسبها منارة المسجد(٢٧) (انظر شكل ٤).

صورة للعقود الاسلامية فى قصر الحمراء

(١) ابن خلدون: المقدمة ط القاهرة دار الشعب ، ص ٣٠٩ .
(٢) مسالك الممالك، ص ٨٠ .
(٣) ابن حوقل : المسالك والممالك، ص ٩٦ .
(٤) المقريزى : الخطط والآثار ، ج ١، ص ٣٤٠ .
(٥) المرجع السابق، ج ١، ص ٣٣٠ .
(٦) المقريزى : نفسه ، ج ١، ص ٣٣٠ .
(٧) فتوح مصر والمغرب، ص ٢٣٦ .
(٨) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، ط الجزائر ١٨٥٧م، ص ٢٢.
(٩) المرجع نفسه ، ص ٢٢ .
(١٠) ورقات عن الحضارة العربية بافريقية لحسن حسنى عبد الوهاب، ص ٥١ .
(١١) المرجع السابق، ص ٥٢ .
(١٢) المرجع السابق، ص ٣٩ .
(١٣) حسن حسنى عبد الوهاب : المرجع السابق، ص ٥٧ .
(١٤) ابن عبد البر القرطبى: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، ج ٢، ص ٥٧٥، ط سنة ١٣٣٦هـ.
والكتانى : التراتيب الادارية، ج ١، ص ٢٢٥ ط الرباط، ص ١٣٤٦هـ.
(١٥) راجع البيان المغرب ج ١، ص ٦٨، وحسن حسنى عبد الوهاب: المرجع السابق ص ٥٨.
(١٦) راجع ورقات ص ٥٩، وفتوح مصر والمغرب، ص ٩٢ .
(١٧) المرجع السابق، ص ٦٠ .
(١٨) نفس المرجع ، ص ٣٧٦ .
(١٩) نفس المرجع، ص ٣٧٨ .
(٢٠) نفسه ص ٣٧٩ .
(٢١) ص ٢١٠، ترجمة اسماعيل العربى ط الجزائر، سنة ١٩٧٩م.
(٢٢) نقلا عن المرجع السابق، ص ٢١٠ .
(٢٣) د. عفيف بهنسى : تاريخ الفن والعمارة ط سنة ١٣٩١هـ، ص ٣٢٦ .
(٢٤) د. عفيف بهنسى: المرجع السابق، ص ٣٢٨ .
(٢٥) المرجع السابق ص ٣٣٠.
(٢٦) المرجع السابق ص ٣٤٦.
(٢٧) راجع تاريخ الجزائر العام ط الجزائر ج ١ ص ٨١ وما بعدها.